الفصل الرابع
لقد عادوا من جديد

١- الصعلوك :

عدنا من جديد للإقامة فى بيت الشباب ، وذلك بعد أن أجرينا بعض الإتصالات والمباحثات ليتبين لإدارة النزل أننا كنا المجنى عليهم ولسنا الجناة ، وقد تغير الوضع كثيرا بالنسبة لنا فى بيت الشباب ، فمنذ معركة الكرامة تلك تغيرت على إثرها نظرة الشباب لنا ، وأصبح الكل يحفظ لنا قدرا ، وتمكنا أخيرا من التعايش والإندماج مع هذا المجتمع المصغر المكون من مجموعات ووفود من شتى محافظات مصر ونجوعها ، ذات الطبائع والثقافات المختلفة ..

ومن أبرز تلك المجموعات هم وفد (الأسكندرية) ، فقد كانوا يسيطرون على النزل إلى حد ما ، وهذا لأنهم الأكثر عددا والأكثر قدرة على المراوغة والتلاعب بالألفاظ وإطلاق الإفهات ، ولكن أكثر ما كان يسوء هذا الوفد من شباب الأسكندرية هو اعتيادهم على تدخين (الماريجوانا) بشكل يومى ، ولهذا كنا لا نقرب مجالسهم ليلا على الإطلاق .. فذات يوم ذهب صديقنا (مصطفى) إلى دورات المياة ، ليجد أحد هؤلاء الشباب هناك فحياه بابتسامة رقيقة ناعمة ، فرد عليه الأخير بصفعة مدهشة ، كتلك الصفعة التى تلقاها

(عبد الحليم حافظ) فى فيلم الخطايا .. فلم يكن الفتى فى وعيه آنذاك ، حيث إحتقن وجهه بالدماء وإنتفخت عروقه ، ولم يستطع التوقف عن الضحك ، ثم إرتمى على الأرض مغشيا عليه من فرط الضحك الهستيرى ..

وبدلا من أن يثأر صديقنا لنفسه أخذ يحاول تهدئته ، ثم يحاول إسعافه ! ..

فقد كان الفتى من شباب الأسكندرية ، وقد أسرف على نفسه فى هذه الليلة ..

ولقد تعلمنا الكثير والكثير من هذا الإختلاط والإندماج مع هذا الكم الهائل من الشباب بمختلف ثقافاتهم وعاداتهم ، وأصبح الأن لدى فراسة تمكننى من معرفة لأى المحافظات ينتمى من أتحدث إليه دون أن يخبرنى هو بذلك ..

ومن بين هذا الكم الهائل من جموع الشباب ، قد تعرفنا على شاب فريد من نوعه (غريب أطوار آخر) ، ولكن هذه المرة جاءنا من الأردن .. إنه ذلك الوافد الجديد (أمجد) .. فقد أفنى عمره كله مع والده فى الأردن ، وعاد إلى مصر ليلتحق هو الآخر بالجامعة هنا ..

وكان الفتى يحترف لعبة (الكاراتيه) ، وكان يمتلك قدم صلبة وركلة قوية ، وقد إلتمعت عيناه حين رأى صديقنا (خالد) .. ذلك الفتى القوى مفتول العضلات ، فراق له بنيانه وقوة زراعه ، ووجد فيه ضالته ، وأنه الخصم الجدير بالمنافسة ، فأصبح كلما رآى صديقنا شاء أم لم يشأ ، دخل معه فى تحدى ونزال

طويل وعنيف ، رهانا على قوة التحمل والمثابرة ، حيث هذا يركل هذا ، بينما هذا يلكم هذا .. وكان الأمر مسليا فى البداية ، فكان الشباب يلتف حولهم فى شغف وترقب ، ولكن مع مرور الوقت وتكرار الأمر أصيب الجميع بالملل وكذلك صديقنا المسكين (خالد) ، فحتى عندما كان يحتدم النزال بينهما ويطرح أحدهما الآخر أرضا ، يقوم المارة بالوثوب من فوقهما وتخطيهما كأنهما حفرة تعترض طريقهم ، ثم يكملون سيرهم دون النظر إليهما ودون أن يعيروهما أى إهتمام ! ..

فهذا المجنون كان لديه طاقة غريبة فلا يكل ولا يمل ، بينما صديقنا لديه كبرياءه الذى يمنعه من رفض ومواصلة التحدى تحت أى ظروف ، فكل ما يستطيع صديقنا المسكين فعله هو أن يتوارى عن أنظار هذا المجنون لئلا يراه ومنذ ذلك الحين وأصبحت عضلات صديقنا (خالد) المفتولة والمتباهى بها هى مصدر شقائه ومعاناته ، وأصبحت حياته تشبه حيات المطاريد ، فدائما ما يكون مترقب ويتحسس خطاه كلما غدا أو راح ، ودائما كنا نتقدمه ببضع خطوات لنأمن له الطريق عند دخوله وخروجه من النزل !!! ..

وكان هناك شاب ريفى لا أذكر من أى محافظة ، حيث كان هو الوافد الوحيد من قريته على ما يبدو ، وكان الجميع يعاملونه معاملة مهينة وكأنه صعلوك بدون مبالغة وبدون سبب واضح ، وبالأخص وفد (الأسكندرية)

فكانوا يتفننون فى إهانته ، وكنت أتعجب حينها .. كيف لهذا الشاب قوى البنية مكتمل الصحة شديد البأس أن ينتهى به الحال ليصبح أضحوكة وسط هؤلاء الشباب أصحاب الأجسام البالية الخربة من فرط تدخينهم (للماريجوانا المخدرة)؟! ..

فكنت أشفق عليه حقا ، فأتحدث وأتودد إليه لأخفف عنه وطأة الإهانات التى يتلقاها كلما غدا أو راح ، دون أن يكون لدى ما أقدمه له غير نصحه بالبحث عن نزل آخر ، فهذا النزل لا يناسبه بأى حال من الأحوال .. وفى يوم من الأيام جاء وافد جديد إلى النزل ، وكان وحيدا لا يعرفه أحد ، وساقه قدره العثر إلى أن ينزل فى غرفة تخص مجموعة من وفد الأسكندرية ، وما هى إلا ساعات قليلة من الليل إنقضت حتى خرجنا من غرفتنا على صوت العراك ، وإذا بالوافد الجديد يغادر النزل متوعدا بالويل بعد أن قام أحدهم بسلبه حزامه على سبيل الإهانة !

وفى عصر اليوم التالى وأمام نزل الشباب وقف عدد غفير من الشباب حاملى الجنازير والهراوى غريبة الشكل ، ولا يسألنى أحد من أين أتوا بهذه الأشياء فأنا مثلكم أتساءل ، وعلى أى حال إنهم أبناء المحافظات فلا عجب إذا فى ذلك .. وفى وسطهم يقف أحد شباب الأسكندرية ومن الواضح أنه سبب هذه المشكلة وهو من إنتزع الحزام .. وعلى إستحياء ورهبة غير مسبوقة يقف

بعض شباب الأسكندرية فى ترقب للوضع ، فإذا بصديقى (ساموزين) يتدخل محاولا تهدئة الوضع ، فأسكته أحد الشباب المدججين بالسلاح بعامية شديدة العنف قائلا ..

(إخرس ياض) .. فاحتقن وجه صديقى بالدماء وتغير لونه ، فجذبته من ذراعه إلى داخل النزل ، وقلت له ..

- << إن حدثت هنا معركة فلن تكون بالهينة ياصديقى ، وليس لنا في هذا الأمر ناقة ولا جمل ، فوجودنا معهم فى نزل واحد لا يعنى أننا نتحمل معهم تبعات أخطائهم ونخوض معهم المعارك ! >> ..

فأمسك زميلى بطوق النجاه الذى ألقيته له وجلس فى مكانه ..

ثم ذهبت إلى موظف الإستقبال حيث قلت له .. << هلا إتصلت بالشرطة؟! >> ..

وببرود قاتل رد قائلا .. << طالما لم يقتحموا النزل فلا شأن لى بالأمر !!! >> ..

ودخل علينا أحد الوافدين من الخارج حيث مسرح الأحداث قائلا ..

- << لقد رحلوا وأخذوا الفتى معهم >> ..

وهنا إنتفض (الصعلوك) !!! .. نعم إنه (الصعلوك) ذاته فلا وقت للتعجب !

أخذ الصعلوك يصرخ فى كل الموجودين من حوله (الإسكندرانية) قائلا

- << هل ستدعوهم يأخذونه من بين أيدينا هكذا ؟! .. هل أنتم حقا رجال ؟! .. سأخرج وسوف آتى به وحدى وإن لم تخرجوا معى >> ..

وكان ممسكا بقطعة خشب أتى بها من بهو النزل الخلفى حيث المخلفات والأثاث المتهالك للنزل ، فأسرع الجميع بإحضار المزيد من هذه الأخشاب ، حينها تذكرت على الفور أننا تعرضنا لموقف مشابه فى معركة الكرامة تلك ، ولكن الوضع هنا مختلف بالكلية ، فكل ما فعله (الصعلوك) هو إثارة الحمية فى صدور الشباب دون توجيه وقيادة وتخطيط .. وأن الخصم الأكثر عددا وعدة ليس بغافلا عنهم على الاطلاق ، فهم مازالوا فى مسرح الأحداث حاملين أمتعتهم ومتوقعين ردة فعل محتملة ، فلن يفاجأهم الهجوم على أى حال ، وأيقنت حينها أن (الصعلوك) لن ينجح فى تخليص الفتى ، بل وليس لديه النية حتى لفعل ذلك ، ولكنه قد نجح بالفعل فى تغيير وضعه الخاص بين شباب النزل ، وأنه لم يعد (صعلوكا) بعد الأن ..

فإنطلق من كان منذ لحظات (صعلوك) ، وإنطلق معه عدد من شباب (الأسكندرية) مشتعلى الحمية ، وهم صديقى للخروج معهم متأثرا بخطبة ذلك (الصعلوك) الرائعة ، فأمسكت بذراعه ونظرت إليه قائلا ..

- << أنا لم أخذلك يوما ياصديقى منذ أن عرفتنى ، فلا تذهب معهم أرجوك >> .. فجلس صديقى على مضض ، بينما أنا .. فقد قتلنى الفضول لمعرفة

ماذا سيحدث ، فأنا مولع بوضع الخطط والإستراتيجيات كما تعلمون ، وما كان لحدث مثل هذا أن يمضى هكذا دون أن أعاينه بنفسى ، فوضعت يدى على كتف صديقى وقلت له .. << لا تتحرك من مكانك سأعود فى الحال >> .. وانطلقت مسرعا كى لا يفوتنى شئ من الحدث ، فإذا بالشباب الثائر منطلقين فى إتجاه خصومهم بقيادة (الصعلوك) فى مشهد مهيب لتخليص صديقهم المأسور ، بينما إنطلقت نحوهم كتيبة من صفوف الخصم فى تنظيم وتشكيل رائع قد حسموا به الأمر قبل أن يبدأ من الأساس ، وهذا إن دل على شيئ فإنما يدل على التمرس والخبرة والباع الطويل فى إدارة مثل هذه الأمور ..

بينما ظل البقية ملتفين حول الفتى الأسير .. وقبل أن يبدأ الإلتحام .. لاذ (الصعلوك) بالفرار !!! .. وعلى إثره إرتبكت صفوف الثائرين ولاذوا هم أيضا بالفرار .. فتحول النزال إلى مطاردة ، حيث توجه الثائرين إلى النزل ليحتموا به بينما تسعى جحافل الخصم فى طلبهم ! ..

وكما قالوا عن الحب أن منه ما قتل فإن من الفضول أيضا ما قتل ، فحرصى وشغفى على رؤية الحدث للنهاية وضعنى ودون أن أشعر فى قلب الحدث ولا سبيل للتراجع وتفادى الأمر ، فاتخذت قرارى سريعا ، حيث وضعت يدى فى جيبى ، وإرتكزت بظهرى على حائط النزل ، ورفعت إحدى قدماى لترتكز هى الأخرى على الحائط بينما وقفت على الأخرى ، ورسمت على وجهى ملامح

اللامبالاة تلك ، متجاهلا تماما ذلك الفتى المنطلق نحوى شاهرا أداته التى صممت خصيصا للقتل وتهشيم العظام وكأننى لا أراه ولا يهمنى أمره بالمرة ، وبنظرة سريعة تفحصنى فيها الفتى ، حلت السكينة على قلبه الهائج ، وعدل عن قتلى ، وانطلق باحثا عن غيرى ..

دخلت إلى النزل فاندفع نحوى صديقى سائلا عن مجريات الأحداث بالخارج ، قلت له .. لا شئ لقد هزم الشباب ، فقال .. وما مصير الفتى الأسير ؟

فقلت .. لا تقلق عليه فانه الأكثر أمانا فى الخارج على ما أظن ، ففى النهاية إنهم مجرد طلبة ، فلن يتورطوا فى إلحاق الأذى به ، وستراه بعد قليل داخلا علينا دون حزامه وربما زادوه صفعة أو إثنين لا أكثر جزاء على فعلته ..

وبينما يتراشق الشباب فى بهو النزل بإلقاء اللوم على بعضهم البعض ، إذ دخل علينا الفتى الأسير مطأطأ رأسه منزوع الحزام ويبدوا على وجهه أثار صفعة أو إثنين .. حينها نظر إلي صديقى وهز رأسه باسما ..

أما صعلوق الأمس فقد أصبح اليوم سيد القوم ، وأصبح هو من يمطرهم بالسباب دون داعى مثلما كانوا يفعلون معه بالأمس ، و أصبح الأن يتجاهلنى تماما ويتحاشى النظر فى وجهى ! .. فربما رؤيته لى تذكره بيوم أن كان

(صعلوكا) أربت على كتفه مواسيا ..

****

٢- نافذة الى الجانب الآخر :

وعلى أى حال فقد كانت الأمور تسير معى على نحو جيد ومثالي إلى حد كبير ، إلى أن رأيته متجها ناحية الدرج .. إنه ذلك الفتى غريب الأطوار الذى أحضره لنا (رضا) يوما ما ، أنتم تتذكرونه بالتأكيد ، ذلك الشاب الأنيق غريب الأطوار ذو البشرة البيضاء الشاحبة والأعين الزرقاء الذابلة ، والذى لا تظهر على ملامحه أى تعبيرات تشعرك بأنه حى يرزق ، أنتم الأن تتذكرونه بالتأكيد ..

فذهبت إلى موظف الإستقبال والذى أصبح بيننا وبينه علاقة طيبة تسمح لى بطلب خدمة بسيطة منه بشأن التحقق من نزول أحدهم للإقامة فى النزل ، متى وفى أى غرفة نزل ؟ .. ولكن الغريب أننى لم أتذكر إسم الفتى !!! ..
وعلى أى حال فقد أكد لى موظف الإستقبال أنه لا يوجد نزلاء جدد منذ أربعة أيام ، وذلك لأن جميع الغرف شاغرة منذ ذلك الحين ، وحين أخبرت أصدقائى بشأنه وجدت أن أى منهم لا يتذكر إسمه أيضا !!! .. ولكنهم إستبعدوا أن يكون الفتى مقيم معنا فى النزل منذ أربعة أيام دون أن يراه أحدهم ، لذا فقد رجحوا إحتمالية أنه قد خيل لى رؤيته ..

وذات ليلة عزم أصدقائى على النزول لشراء بعض الأغراض وشراء شيأ لنأكله على العشاء ، ولكنى تخلفت عنهم لشعورى بالتعب والإرهاق ، وأثناء جلوسى على سريرى فى الغرفة أخذت أطالع بعض المذكرات التى إشتريتها لتوى اليوم ، فأحسست بطعم غريب فى فمى مالح بعض الشئ ، فمددت يدى لأكتشف أنها دماء !!! ..

فذهبت إلى دورات المياه لأتخلص من هذه الدماء فى فمى وأنظر فى المرآة لعلى أعرف السبب وراء هذه الدماء التى ظهرت فجأة دون سبب واضح لها ، فرأيت أحدهم من خلال المرآة يخرج من إحدى الحمامات خلفى متوجها إلى الممر مباشرة ، وفى هذه المرة تحققت منه جيدا ، إنه هو الفتى بعينه ولا شك فى هذا ، فانتابتنى قشعريرة ورهبة ، ولكننى تمالكت نفسى وأسرعت للحاق به لمعرفة فى أى غرفة نزل .. ولكن .. أين ذهب ؟! .. فدورات المياه فى منتصف الممر تماما ، لذا كان من المستحيل أن يكون قد قطع الممر لنهايته دون أن أراه ، فمن المؤكد إذا أنه قد دخل إحدى هذه الغرف .. وعلى الفور ودون تردد قمت بإقتحام كل الغرف بحجة البحث والسؤال عن أحد الأصدقاء ..

ولكنى لم أجده فى أى منها !!! ..

فعدت إلى غرفتى واستلقيت على السرير وأخذت أفكر فى لغز ذلك الفتى ؟ ..

فمنذ أن ظهر وتحيطه هالة من الغموض والريبة ! .. لابد أن وراءه خطب ما ، وإتجهت ببصرى ناحية الباب الذى هم أحدهم بفتحه ، لعلهم أصدقائى قد عادوا

أخيرا .. فكانت المفاجأة والتى كان وقعها علي أكبر من أن تصفها بعض الكلمات ، لقد كان ذلك الفتى غريب الأطوار ، بل لقد كانوا ثلاث فتيان كلهم على هيئة الفتى غريب الأطوار نفسه قد دخلوا على الغرفة !!! ..

كان الأمر حقا مفزعا .. وخصوصا حين هممت بالقيام من مكانى فلم أستطع ! .. لقد فقدت السيطرة على جسمى بالكلية ، وكأنه لم يعد لى ، وكذلك لم أستطع أن أحرك فمى لأصرخ طلبا للنجدة من أحدهم .. وباستثناء ذلك كان باستطاعتى أن أحرك عينى وأمررها يمينا ويسارا .. فتابعت بهما فى زعر وترقب تحركات الثلاث فتيان أو الثلاث كيانات بتعبير أدق ، فلم يعد هناك مجال للشك فى ذلك ، لقد مضت فترة طويلة لم أرى فيها أيا من هذه الكيانات اللعينة ! .. حيث توجه ثلاثتهم نحوى ليستقر أحدهم عن شمالى ، والآخر عن يمينى ، بينما إستقر الثالث عند رأسى من الخلف .. وأخذوا يرددون بعض الكلمات المألوفة بالنسبة لى ، لقد كانوا يرددون قولة ..

<< أنت منا ونحن منك .. كن معنا تكن لك المنعة والقوة والسلطة والمال .. وتكون سيدا بين العالمين >> ..

أخذوا يرددونها دون توقف حتى تساءلت فى نفسى .. متى يتوقفوا عن هذا ؟!

وفى أحد أركان الغرفة ، ظهر الشيخ الكبير أشيب الشعر بجلبابه الأبيض الناصع البياض .. لقد عاد من جديد .. كنت قد نسيت أمره أو تناسيته وظننت أنه ربما قد إنتهى هذا الأمر ..

هنا توقفت الثلاث كيانات عن ترديد مقولتهم العينة تلك ، حيث وقف الشيخ الأشيب عند قدمى قائلا ..

- << لقد جئناك على موعد لنأخذ منك العهد والميثاق >> ..

وهنا تحرر لسانى وحلت عقدته وتمكنت من الكلام ، فقلت له ..

- << لم يكن بينى وبينكم ميعاد أو عهد لتطالبنى به ؟! >> ..

- << لقد طلبت أن نعطيك مهلة حتى تأتينا طوعا ، وقد أمهلناك ، وها نحن قد عدنا إليك ، وشئت أم أبيت ، طوعا أم كرها ، أنت منا ونحن منك >> ..

- << مازلت أحتاج لمهلة .. فأمهلونى كى أسترد حياتى أولا ، ثم أنظر فى أمر العهد بينى وبينكم >> ..

فسكت برهة ثم أجابنى قائلا ..

- << ستكون هى الأخيرة .. وسنأتيك ليلة إكتمال القمر من كل شهر كى لا تنسى أمر العهد مجددا >> ..

ثم تحرك الرجل الأشيب ناحية الباب وفى إثره تحرك الثلاثة كيانات ، وما أن خرجوا من الغرفة ، حتى تمكنت من تحريك ذراعى وعادت لي السيطرة على كامل أتراف جسمى من جديد ..

فقمت لأجلس على السرير ، وتكاد رأسى أن تنفجر من شدة الضغط والغليان ، ولم يمضى على ذلك الكثير حتى هم أحدهم بفتح الباب ، فرفعت بصرى نحوه فى ترقب وزعر ، ولكنه كان صديقى (عمرو) هذه المرة ، وتساءل صديقى عن سبب القلق والتوتر الذى لاحظه علي فور دخوله الغرفة ؟! .. فقلت له ..
لا تشغل بالك ، إنه مجرد كابوس أفزعنى وحسب ، ثم دخل أصدقائى الثلاث تتعالى أصواتهم بالضحك والمزاح ، فسألهم (عمرو) .. وأين خالد ؟ ..
فأجابه (كريم) .. لقد أمسك به (أمجد) ذلك الفتى المجنون ، وهم الأن يتصارعون فى آخر الممر ، قال (عمرو) .. فالننسى أمره إذا وهيا بنا نتناول عشاءنا ، فضحك الجميع ، وبينما هم كذلك كنت أنا فى واد آخر ..
لقد عادوا من جديد .. ومعهم تعود معاناتى وآلامى ..

ومنذ ذلك الحين كانوا يأخذونى معهم ليلة إكتمال القمر من كل شهر فى جولات حول ممالك الجن ، وإنها ممالك كبيرة جدا وعظيمة ، رأيت فيها من العجائب والغرائب الكثير ، وعلمت أنهم يعدون لحدث عظيم قد إقترب وقوعه ، فسمعتهم يتحدثون عن معركة كبرى فاصلة ستقوم بين العوالم الثلاث ،

وسمعتهم يتحدثون عن قرب ظهور قائدا يحررهم من سلطة الإله وقبضته ويقودهم نحو نصر مبين ! .. وحتى الأن لم يكلفوننى بشئ ، إنهم فقط يتجولون بي مستعرضين أمامى عظمة واتساع ملكهم ظنا منهم أننى سوف أفتتن بمدى قوتهم وبأسهم وأنضم إلى معسكرهم !..

ألم أقل لكم أنهم حمقى .. وأن الحمقى جميعهم يتشابهون على إختلاف أجناسهم ! .. إنهم يريدون أن يحاربون الإله بحوله وقوته التى أمدهم إياها ! .. فكل هذا الملك على إتساعه وعظمته إنما هو ملك الإله وعلى أرضه ! ..

وقوتهم وبأسهم الشديد هذا إنما منحهم إياه الإله وإن شاء سلبهم إياه فيصبحون بلا حول ولا قوة ! ..

لقد بات الصدام والفصل بينى وبين هؤلاء وشيكا .. ولكن إلى أن يقع هذا فأنا مازلت حيا أرزق ، وما زالت أمامى حياة أعيشها .. فلأدع شأن الغد للغد ، عله حين يأتى ذلك الغد أكون قد علمت ما ينبغى علي فعله حياله ، أو لعلى لا أدرك ذلك الغد من الأساس ! .. لهذا كنت أستأنف حياتى بعد كل رحلة أعود منها وكأن شيئا لم يكن .. دون الإكتراس لكل ما رأيته وعلمته ، حتى عن هذه المعركة الكبرى التى يعدون لها والتى قد باتت وقوعها وشيكا كما يقولون لم أكترث لها .. فإن لهذا الكون إلاله يدبر أمره ، وأنه ما من شئ يحدث فى ملكه إلا بعلمه وإرادته .. فعلا ما يكون الجزع والخوف ! ..

٣- مشاعر كاذبة :

وكنا عائدين من أجازة النصف الأول من السنة الرابعة والأخيرة لنا فى الجامعة فوضعت أغراضى وتوجهت الى دورات المياة لأزيل عن نفسى آثار ومعانات الطريق ، وعند عودتى إلى الغرفة وجدت أصدقائى قد أخلدوا للنوم متأثرين بإجهاد ومعانات السفر ، فهممت بدورى وطرحت جسدى على السرير طلبا للراحة والنوم ، وبينما كنت بين اليقظة والنوم شعرت بتثاقل فى رأسى يزداد شيئا فشيء ، ثم أحسست بجسمى يتحرك رغما عنى يمنة ويسارا ثم إلى أعلى بشكل مفاجيء ، وحين تمكنت من فتح عينى بشيء من الصعوبة والتثاقل وجدتنى أحلق فى فضاء الغرفة تاركا جسدى أراه ممددا من تحتى فى ثبات تام وكذالك كنت أرى أصدقائى ممددين على أسرتهم ، كنت مسلوب الإرادة تماما ، كان هناك شيء ما يتحكم فى تحركاتى ، حتى أننى حاولت التحرر من سيطرته تلك ولكن دون جدوى ، وفجأة أظلم المكان من حولى وإنعدمت الرؤيا تماما للحظات ، وحين عادت الرؤيا رأيت نفسى محلقا فوق طريق أسفلتى بسرعة مخيفة ، رأيت الطريق الأسفلتى يجرى من تحتى بسرعة جنونية ، ثم أظلم المكان وانعدمت الرؤيا مرة أخرى ، وحين عادت وجدت نفسى محلقا داخل منزل لا أعرفه ، كان هناك أناس كثيرين يمرحون فى سعادة ونشوة وكان هناك صوت لغناء أو أناشيد ، فعلى ما يبدوا أنه احتفال بشيء ما ، ولكن .. من هؤلاء فأنا لا أعرف أحدا منهم ؟! .. إلى أن

رأيتها هناك ، كانت (هيام) ، ولكن من هذا الشخص الذى يجلس بجانبها ؟! .. وكيف تسمح له بأن يمسك يدها ؟ .. ولماذا هى سعيدة بذلك .. وكذلك هو ؟! .. ثم أظلم المكان من جديد ..

وكانت شهقة كادت أن تلفظ لها أنفاسى وأيقظت أصدقائى من نومهم فزعين ..

وحين هدئ روعى قمت بالإتصال (بهيام) ولكنها لم تجب ! ..

وفى الصباح لم أجدها (هيام) فى الجامعة كعهدى بها ، فحاولت الأتصال بها من جديد ولكن دون جدوى أيضا ، وبعد يومين قامت هى بالاتصال بى ، فطلبت رؤيتها وتقابلنا فى الحديقة العامة التى اعتدنا الجلوس فيها بعد الجامعة وسألتها عن سبب تأخرها فى المجيء إلى الجامعة ، فقالت أنها تكاسلت قليلا ، ثم قالت لى فى دلال مارأيك بهذه الدبلة فى يدى ؟ ..

فنظرت إليها دون أن ألفظ بكلمة منتظرا سماع المزيد .. فقالت ..

- << لقد ابتاعتها أمى لى .. ليعلم جميع من حولنا أنى أصبحت مخطوبة حتى يتوقف طرق الخطاب لبابنا من حين لآخر ، فهذا الأمر سبب لنا الكثير من الحرج وهذه دبلة مؤقته بالطبع إلى أن تتقدم لخطبتى وتبتاع لى واحدة >> .. فابتسمت لها قائلا ..

- << أبلغى تحياتى لوالدتك واشكريها على صنيعها هذا ، والأن سأترككى لتستريحى من عناء الطريق على أن أراكى غدا فى الجامعة >> ..

كنت أعلم بالطبع أنها تكذب ، ولكنى فضلت البقاء عليها إلى حين تقرر هى إنهاء الأمر كما يحلو لها ، فقد كنت فى أمس الحاجة لوجودها بجانبى هذه الأيام بعدما بدأت الأمور تسوء بعودة هذه الكيانات لملاحقتى ، كنت أحتاج لمن أجالسه لفترات طويلة وأتحدث إليه فى أى شئ دون أن يملنى أو أمل منه ، ووحدها المرأة تصلح لذلك ، وكانت هى المرأة الوحيدة فى حياتى آنذاك ..

مضت الأيام وتجددت بيننا اللقاءات والأحلام والأمنيات وكأن شيئا لم يكن ، إلى أن إنتهى العام الدراسى وكان هو الأخير ، فحزمنا حقائبنا وقمت بتوصيلها حتى مدخل الحى الذى تسكن فيه ، ولم تكن (هيام) من القاهرة بل كانت من أبناء إحدى المحافظات ، وكانت نظرتها لى فى هذا اليوم مختلفة عن النظرة التى اعتدتها منها ، فكانت النظرة هى نظرة الوداع ..

مضى شهرين وما زال الاتصال بيننا قائم لم ينقطع ، فكنت تقريبا أتحدث إليها يوميا ، وفى ليلة وبينما كنت بين اليقظة والنوم شعرت بتثاقل فى رأسى يزداد شيئا فشئ ، وأحسست بجسمى يتحرك رغما عنى يمنة ويسارا ، ثم حلقت فى فضاء الغرفة تاركا جسدى أراه ممددا من تحتى فى ثبات تام ،

وفجأة أظلم المكان من حولى وإنعدمت الرؤيا تماما للحظات ، وحين عادت كنت محلقا على طريق أسفلتى يجرى من تحتى بسرعة مخيفة ، ثم أظلم المكان وانعدمت الرؤيا مرة أخرى ، وحين عادت كنت عند مدخل الحى الذى تسكن فيه هيام ،

حيث على صوت الغناء والصخب وتزاحم الناس ، إنهم يحتفلون بشئ ما ، فهناك صوان منصوب فى الساحة الواسعة من الحى وهناك مسرح عليه فرقة غنائية تنشد أناشيد الأفراح الاسلامية فى ذلك الوقت ، وكان هناك طفلتين يرتديان فستانا أبيض جميل يرقصان على المسرح ، وكان هناك أيضا رجل يرتدى بدلة أنيقة يشارك الطفلتان فى رقصتهما ومرحهما ، أنا أعرف هذا الرجل ، لقد رأيته من قبل .. نعم انه هو بعينة ، أنا لا أعلم حقا لماذا يقترن دائما (الكرش) والجسم الممتلئ بالعريس (الجاهز من مجاميعه) فى هذه الأيام ! ..

وهناك كان صوان آخر بجانب الصوان الأول .. فلابد إذا أن (هيام) هناك ..

فهذه هى سمة الأفراح الإسلامية من حيث عدم الاختلاط فى حفلات العرس ..

لقد أظلم المكان من جديد دون سابق إنظار ، وكانت شهقة كادت أن تلفظ لها أنفاسى إستيقظت عليها ، وبعد عدة أيام إنقطع فيها الاتصال بينى وبين (هيام) لم أحاول فيها الإتصال بها .. تلقيت إتصال من هاتفها الشخصى ، ولكن هذة المرة لم تكن (هيام) هى المتصلة بل كانت والدتها ..

وبنبرة صوت حزينة يبدو عليها التصنع الفاضح قالت ..

- << البقاء لله .. لقد توفت هيام اثر أزمة قلبية مفاجأة ، وقمنا بدفنها منذ ثلاثة أيام ، وقد أوصتنى وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة أن أتصل بك ، فعذرا أننى تأخرت فى الاتصال ، فأنت تعلم صعوبة الأمر >> .. فقلت لها ..

- << البقاء لله يا أماها .. لا داعى للعذر فأنا قد علمت بوفاة (هيام) فى حينها وقد حضرت مراسم تشييع جسمانها بنفسى >> ..

فساد صمت دام للحظات بيننا .. ثم إستأذنت وأنهت الاتصال ..

الغريب حينها أنه لم ينتابنى أى شعور بالحزن والأسى على فقدها ! ..

فعلمت أن العلاقة بينى وبينها لم تكن علاقة حب على الإطلاق بل كانت علاقة احتياج .. فكل منا كان فى احتياج للآخر فى وقت ما .. والأن لم نعد كذلك ..

****